بين الوطنية والأممية

للأستاذ ساطع بك الحصرى

مدير الآثار بالعراق

الوطنية من أهم وأقوى النزعات الاجتماعية المتأصلة فى النفوس البشرية ، ومع هـذا فهى لاتسلم من أعداء وخصوم ، يسعون إلى كسر قوتها وإزالة تأثيرها ... إنني سأتحدث إليكم عن أهم أعداء الوطنية وأخطر خصومها ...

عنـد ما أقول « أعداء وخصوم » لا أقصـد بقولى هذا « الأشخاص والأفراد » بل أقصـد « الميول والنزعات » .. لا أقصد الأشخاص والأفراد الذين يعادون وطنهم ، ويخونون أمتهم .. بل أقصد الميول النفسية والنزعات الفكرية التى تعاكس الدواعى الوطنية ، وتوجه العواطف والأعمال إلى اتجاه يخالف اتجاهها ...

إن أهم وأعم الميول النفسية التى تعارض الوطنية وتعاديهـا بهذه الصورة هى « الأنانية » ... لأنها توجه النفوس نحو المصالح واللذات الذاتية ، وتحملها على تقديم هذه المصالح واللذات على كل شىء .. فى حين أن « الوطنية » — بعكس ذلك — تدعو إلى « الإيثار » و « التضحية » ، في سبيل الوطن والقومية .. إنها تطلب من كل شخص أن يحب وطنه ويخدم أمته بكل ما أوتى من قوة ، وأن يضحى بشىء كثير من راحته وهنائه فى هذا السبيل ، حتى أنها تطلب منه أن يوصل هـذه التضحية إلى درجة « بذل النفس والحياة » عند اللزوم ..

ولذلك نستطيع أن نقول : إن الأنانيـة تعمل على الدوام عملاً معاكساً لدواعى الوطنية ... فالوطنية لا تستطيع أن تنمو وتقوى دون أن تتغلب على الأنانية المعادية لها

غير أن الأنانية لا تعادى النزعة الوطنية وحدها ، بل تعادى جميع الفضائل والنزعات الأخلاقية ، على اختلاف أنواعها .. فكسر قوة الأنانية ليس من الأمور التى تتطلبها النزعة الوطنية وحدها ، بل هو من الأمور التى تتطلبها سائر النزعات الأخلاقية بأجمعها

فنستطيع أن نقول لذلك : إن خلال النضال العنيف الذى يحدث بين الوطنية والأنانية لا تبقى الوطنية بدون أنصار ... بل إنها تجد لنفسها عدة أنصار من سائر النزعات الأخلاقية التى تشترك معها فى هذا النضال ...

* * *

غير أن هناك بعض النزعات التى تعادى الوطنية دون أن تعاكس سائر الفضائل الأخلاقية ؛ فالوطنية لا تجد لنفسها أنصاراً من تلك الفضائل خلال مناضلة مثل هـذه النزعات ، فتتحمل أعباء هذا النضال بمفردها بطبيعة الحال

أما منشأ هذه النزعات المعادية للوطنية فهو الآراء والمذاهب الفلسفية والاجتماعية التى تعتبر الوطنية من « النزعات البالية المضرة » فتدعو الناس إلى نبذها والتخلص منها

لعل أقدم هذه الآراء والمذاهب هى الفكرة التى تعرف في بلاد الغرب باسم ال « كوزموبوليتيه » cosmopolitisme بمعنى « مواطنية العالم » — أو بتعبير أقصر « العالمية » — هـذه الفكرة تدعو الناس إلى الترفع عن « النزعات الوطنية الخاصة » وتطلب إليهم أن ينزعوا إلى « حب العالم » دون أن يفرقوا بين مختلف الأوطان

أما الملاحظات التى تستند إليها « فكرة العالمية » فيمكن أن تلخص بهذه الكلمات :

ما الفرق بين الأوطان المختلفة ؟ ألم تكن كلها من أجزاء الأرض التى نعيش عليهـا ؟ وما قيمة الحدود التى تفصـل الأوطان بعضها عن بعض ؟ أفلم تكن كلها من الأمور الاعتبارية التى أوجدتها الوقائع الحربية أو المناورات السياسية ؟ وما الفرق بين الأمم المختلفة ؟ ألم تنحدر كلها من أصل واحد ؟ أفلا يجدر بالانسان — وهذه هى الحال — أن يسمو بأفكاره وعواطفه فوق الأوطان وفوق الأمم ، فيعتبر الأرض بأجمعها « وطناً » كما يعتبر أبناء البشر بأجمعهم « مواطنين » ؟

لقـد مر — فى الحقيقة — فى تاريخ حياة البشرية عهوداً طويلة ، كانت فيها « الرابطة الوطنية » ضيقة محدودة لا يتعدى نطاقها أسوار بعض المدن . كما كانت فيها الرابطة القومية محدودة المدى ، لا يتجاوز تأثيرها حلقات بعض القبائل . فقـد شهد التاريخ « الدور » الذى ارتفعت فيه الحدود من بين المدن التى

كانت متحالفة ، وانتفت فيه الضغائن من بين القبائل التى كانت متعادية ... فتوسعت فيه فكرة الوطنية والقومية إلى ما وراء حدود المدن ونطاق القبائل ، فوصلت إلى الحدود التى نشاهدها فى الحالة الحاضرة . إن سلسلة التطورات التى حدثت بهذه الصورة إلى الآن ، تدل على أن هذا التوسع سيستمر على الدوام ، فسيأتى يوم تندمج فيه الأوطان المختلفة بعضها فى بعض ، إلى أن يصبح « العالم » « الوطن المشترك » لكل الناس ، كما تمتزج فيه الأمم المختلفة بعضها ببعض إلى أن تصبح « الانسانية » بمثابة « القومية المشتركة » بين جميع أبناء البشر . وأما «النزعة الوطنية» التى نعرفها الآن فستزول حتماً بتقدم البشر وتسامى العواطف ، وستترك محلها لعاطفة إنسانية ، وأخوة شاملة ... فيجدر بالمفكرين أن يسبقوا سائر الناس فى استقبال هذا التطور الجديد ، فيسموا بأنفسهم — من الآن — فوق الوطنيات الخاصة ويعملوا بهذه الصورة على تعجيل حلول عهد الانسانية الحق ...

هذه هى سلسلة الآراء والملاحظات التى تستند إليها فكرة « الكوزموبوليتية » ، « فكرة العالمية » ...

لا شك فى أن هذه الآراء لا تخلو من قوة جذب وإغراء : لأنها تفسح أمام الأذهان مجالا واسعاً لأحلام الاخوة البشرية وأماني السلم الدائم ، وتصور أمام الخيال عالماً جديداً أرقى وأسمى من العالم الذى نعيش فيه الآن ... فمن الطبيعى أن تستولى هذه الآراء — من الوهلة الأولى — على بعض النفوس التواقة إلى الكمال ، ولو كان فى الخيال ...

فقد انتشرت الفكرة — فعلاً — انتشاراً كبيراً بين المفكرين فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر... ولا سيما في ألمانيا ، وحيث أصبحت النزعة السائدة فى عالم الفكر والفلسفة .. فكان معظم الفلاسفة والأدباء — من كوته إلى لسينغ ، ومن هردر إلى شلينغ — يقولون بها ويدعون إليها ؛ فكان « كوته » — مثلاً — يترفع عن النزعة الوطنية ، ويقول «وقانا الله إياها» ، وكان «هردر» يعتبر الوطنية «من النزعات التى لا تليق بالمستنيرين والمفكرين » ...

ومما يجدر بالانتباه والملاحظة أن هذه النزعة الفكرية — مع انحدارها فى الأصل من روح التشوّق إلى الكمال — تتفق — فى النتيجة — مع روح الاستكانة السلبية ، وتكتسب لذلك قوة من ميول الأنانية الخفية ...

لأن «فكرة الانسانية والعالمية» نزعة أفلاطونية ، لا تتطلب من الفرد عملاً فورياً وتضحية فعلية ، فى حين أن الوطنية نزعة واقعية تتصل بالحياة الحالية ، وتتطلب من المرء أن يقوم ببعض الأعمال والتضحيات بصورة فورية ؛ فالانصراف عن النزعة الوطنية ، استناداً إلى « الفكرة الانسانية » يكون بمثابة الانصراف عن الأعمال الإيجابية استكانة إلى الأوضاع السلبية .. ولهذا السبب يتفق هذا الانصراف اتفاقاً كبيراً مع روح الأنانية، التى كثيراً ما تتقنّع بأقنعة خداعة تستر وراءها كثيراً من الميول النفعية ...

لقد انتبه « جان جاك روسو » إلى هذه الحقيقة ، فانتقد « الفكرة العالمية » بأسلوب لاذع ، فقال : « إن بعض الناس يحبون أبناء الصين ، لكى يخلصوا من الواجبات الفعلية التى تترتب عليهم من جراء حب أبناء وطنهم الأقربين »

وعلى كل حال يمكننا أن نقول : إن فكرة « العالمية » انتشرت فى القرن التاسع عشر انتشاراً كبيراً بسبب تشوق المفكرين إلى الكمال الخيالى من جهة ... ويدافع ميل الناس إلى التخلص من ثقل الواجبات الفعلية من جهة أخرى

وهذا الانتشار صار عظيماً فى البلاد الألمانية بوجه خاص ؛ أولاً : لموافقة الفكرة لروح الفلسفة السائدة بين مفكرى الألمان عندئذ ، وثانياً : لعدم اصطدامها هناك بنزعة وطنية قوية بسبب انقسام الألمان إلى دويلات كثيرة ، واشتباك منافع هذه الدويلات وأمرائها اشتباكاً يحول دون نمو النزعات الوطنية والقومية نمواً سريعاً ... إننا نجد فى إحدى الكلمات التى كان قالها المفكر الألمانى « شله يجل » دليلاً قاطعاً على ما أسلفناه ؛ فقد قال : من العبث أن نحاول تكوين أمة ألمانية ، فالأجدر بنا أن نأخذ بالفكرة العالمية ، ونخدم الإنسانية ... »

واستمر الحال فى البلاد الألمانية على هذا المنوال حتى غزوة نابليون وهزيمة « يه نا » ...

ولا شك فى أن الانهزام الهائل الذي منى به الجيش البروسى فى واقعة « يه نا » كان من أبرز نتائج ضعف النزعة الوطنية

وانتشار الفكرة العالمية ... فإن الجنود كانوا ينهزمون من ساحة القتال تاركين أسلحتهم فيها دون أن يحاولوا استعمالها لصد غارة العدو الزاحف إلى بلادهم

غير أن كل ما حدث بعد ذلك بدد الأحلام العالمية والأماني الإنسانية التي كانت مستولية على النفوس ... وأظهر لكل ذي عين بصيرة الفروق الهائلة بين « الوطن » الذي ينتسب إليه وبين غيره من الأوطان ... وبين « الأمة » التي ينحدر منها وبين غيرها من الأمم ...

فإن الذين كانوا انهزموا من ميدان القتال دون أن يستعملوا أسلحتهم لصد غارة الجيوش الأجنبية اضطروا — بعد بضع سنوات من تاريخ الواقعة — إلى الانخراط في سلك الجيوش المذكورة ليخدموا مآرب قادتها الخاصة ... إنهم أرغموا على التجنيد وعلى العمل تحت إمرة قواد فرنسيين ليحاربوا — رغم أنوفهم — الدول والأمم التي أراد زعيم الفرنسيين الاستيلاء عليها دون أن يكون في كل ذلك أدنى مصلحة لهم ولوطنهم الخاص ولأمتهم الحقيقية ...

وهكذا قد شاهد مفكرو الألمان بأعينهم أنه بينما كانوا يغطون في أحلام الإنسانية والعالمية استولت على بلادهم جيوش أمة بعيدة عن تلك الأحلام ، ومتشبعة بروح الوطنية بأشد وأحد أشكالها ، فأخذت تلك الأمة تسيطر عليهم وتستعبدهم ، وتذيقهم أنواع الذل وتسوقهم إلى حيث تريد ...

فكان من الطبيعي أن تنقلب الآراء والنزعات في ألمانيا انقلاباً هائلاً تحت تأثير الدروس القاسية التي ألقتها هذه الوقائع والنكبات .. وفي الواقع لم يمض على واقعة « يه نا » مدة طويلة ، حتى تركت الفكرة العالمية محلها لحماسة وطنية شديدة ويقظة قومية جبارة ... وهذه الحماسة الوطنية واليقظة القومية هي التي أدت إلى نهضة بروسيا المعلومة ، وخلصتها من نير الفرنسيين ثم قادت الأمة الألمانية بأجمعها نحو الاستقلال والوحدة والقوة والعظمة ...

ومن المفيد لنا أن نتتبع هذا التطور العميق فيما قاله وكتبه البعض من مفكري الألمان أنفسهم في ذلك العهد .. أود أن أذكر لكم مثالين بارزين : أحدهما من الحكماء وهو « فيخته » والثاني من الشعراء وهو « آرنت »

عند ما يذكر اسم — فيخته — في ألمانيا ، يتبادر إلى الأذهان الخطب الحماسية التي وجهها « إلى الأمة الألمانية » خلال أيام النكبات التي بحثنا عنها ، تعتبر هذه الخطب من أهم عوامل النهضة في ألمانيا ، ومن أقوى موجهات القومية فيها ...

ألقى فيخته خطبه الأربع عشرة في مدرج جامعة برلين ، عند ما كانت الجيوش المحتلة تقوم باستعراضات متوالية في شوارع العاصمة البروسية وميادينها ... تحتوي هذه الخطب على نظرات فلسفية في تاريخ حياة الأمة الألمانية ، وأبحاث شيقة عن الحيوية الكامنة فيها وعن وسائل التربية التي تكفل تجديد حياتها ... وكل هذه النظرات والأبحاث ترمي إلى غاية واحدة ، هي استنهاض الهمم في سبيل بعث الأمة الألمانية ، وإعادة بناء مجدها..

إن خطب فيخته تنم عن روح وطنية متأججة ، وتدعو إلى نزعة قومية متعصبة ، ولا سيما الخطبة الختامية ، فإنها تعتبر آية من آيات التحميس والاستنهاض . يوجه « فيخته » في خطبته هذه بعض الكلمات إلى الشباب ، ثم إلى الكهول ، ثم إلى رجال الدولة والمفكرين والأدباء ، وأخيراً الأمراء ، مصدراً كل واحدة من هذه الكلمات بقوله : « إن خطبي تستحلفكم وتبتهل إليكم ... »

بعد ذلك يضطرم حماسة ، فيقول لجميعهم : « إن أجدادنا أيضاً يستحلفونكم معي ، ويضمون صوتهم إلى صوتي (ويأخذ في تصوير صوت الأجداد) بأسلوب حماسي جذاب . ثم يعقب ذلك بقوله : « إن أخلافكم أيضاً يتضرعون إليكم » . ويشرح صوت الأخلاف بأسلوب مؤثر خلاب

وأخيراً ينهي الخطبة بكلمات تدل على شعوره بغرور قومي عميق : « ... ولو تجاسرت لأضفت إلى كل ما تقدم قائلاً : إن القدرة الفاطرة أيضاً تستحلفكم وتستنهضكم ... لأنه لم يبق على وجه الأرض أمة حافظت على بذور قابلية التكمل البشري بقدر ما حافظت عليه أمتكم المجيدة ... فإذا سقطت الأمة الألمانية سقط معها الجنس البشري بأجمعه ، ولا يبقى له أدنى أمل في السلامة ... »

(يتبع) ساطع الحصري